الفصل الرابع
من أمراء الصبر والبلاء

● ولا يملك مَنْ يقترب من الشيخ الداعية الإسلامى الدكتور محمد أحمد طه إلا أن يحبه فى الله تعالى ويَعض على أُخوَّته وصداقته بالنواجذ لأسباب منها أنه من أهل القرآن وخاصته، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته وخير خلقه، وفى هذا يقول ﷺ: «خيركم مَنْ تعلم القرآن وعلمه» (رواه البخارى)، والرجل من أهل البلاء بل من أمراء البلاء وملوك الصبر، فهو ممتع بسلب حبيبتيه ونور عينيه، وليس لمن رضى بقضاء الله فيهما من ثواب إلا الجنة، والرجل فوق ذلك قد نزل به قضاء الله تعالى فى حادث سيارة فى مدخل كفر الدوَّار قرب الإسكندرية فأقعده تمامًا وصبر الرجل ورضى بقضاء الله تعالى، وما برح يواصل دوره فى خدمة العلم والدعوة إلى الله آناء الليل وأطراف النهار فى المساجد محاضرًا وخطيبًا فوق كرسيه المتحرك ومجيبًا سؤال السائلين والمستفتين عَبْر الهاتف؛ فهو لهذا فى معية الله تعالى ورحمته، يظفر بجوار الله ورحمته ومؤانسته، وتتنزل عليه شآبيب رحمة الله تعالى ومغفرته وسكينته.

– وفى الحديث القدسى يقول الرب جل وعلا: «يا بن آدم مرضتُ ولم تعدنى!! قال: قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده؟!» (رواه مسلم)، وكان الرسول ﷺ يسأل الله تعالى أن يُحييه مسكينًا وأن يُميته مسكينًا وأن يحشره فى زمرة المساكين فلما سئل عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال: «إن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين»، وفى هذا يقول ابن عطاء الله السكندرى: «من استسلم إلى الله فى واردات الامتحان أعاد الله عليه شوكها ريحانًا وخوفها أمانا».

– وهذا الرجل المبارك، فضلا عن كونه من أهل القرآن وأهل البلاء وأمراء

الصبر هو أيضا رجل ظرف وصاحب طرفة، حديثه غير ممل والجلوس إليه يصول ويطول وتضيق بعلمه وطرائفه الفصول والفصول

– لهذا كله كان حديث الرجل فى البلاء حديث (الدائق الفهم) حيث (لا يعرف الشوق إلا من يُكابدُهُ – ولا الصبابة إلا من يعانيها)، فحسن عند الحديث عن البلاء بيانُه، وبرع استشهاده، وقد ارتكزت حجته على ما جاء فى الكتاب والسنّة بشأن البلاء من مثل قوله تعالى: ﴿ **ولَنَبْلُوَنَّكُمْ حتّىٰ نعلم الْمُجَاهِدِينَ منكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣١]، ومن مثل قول المصطفى ﷺ فيما يرويه مصعب بن سعد عن أبيه حين سأل النبى ﷺ قال: قلت: يا رسول الله. أى الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » (أخرجه الترمذى).

– يقول شيخنا الدكتور محمد أحمد طه – أكرمنا الله بعلمه ونفعنا بدعائه – : « إذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبا لها، وترادفت الضوائق وطال ليلها فالصبر وحده هو الذى يشع للمسلم النور العاصم من التخبط والهداية الواقية من القنوط، والصبر فضيلة أعماله وآماله وإلا كان هازلا . يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت. ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة [ص ١٠٢ – يونس فى القرآن والتوراة].

– وهو جميل الاستشهاد بالشعر كما كان جميل الاستشهاد بالحكمة القرآنية والنبوية وعيون الحكمة النثرية، فهو ليُدلل على ضرورة توطين النفس على احتمال المكاره والصبر على نزول القضاء والرضا بالقدر والتسليم بحكم الله يستشهد بقول الشاعر

عرفنا الليالى قبل ما نزلت بنا فلما دهتنا لم تزدنا بها علما

- كما نجده يحسن الأخذ عن العلماء الرواد لدعم مذهبه وشرح فكرته وتأكيد غايته فينقل عن الشيخ الجليل الأستاذ محمد الغزالى - رحمه الله - كلاما جميلاً فى الصبر من كتابه (خُلق المسلم) حيث يذهب شيخ الدعاة المجاهدين - رحمه الله تعالى - فى شرح فضيلة الصبر إلى اعتماد الصبر على حقيقتين الأولى تتعلق بطبيعة الحياة باعتبارها دار تمحيص وابتلاء يحياها الإنسان فى سلسلة متواصلة من التجارب والاختبارات وليست دار قرار وجزاء، والثانية تتعلق بطبيعة الإيمان الذى هو صلة بين العبد وربه، يلزمها أن تتعرض للابتلاء الذى يمحصها ليكشف عن طيبها أو زيفها. قال تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢ -٣] ، ويختم كلام الشيخ الغزالى - رحمه الله - فى توضيح حقيقة الصبر بقوله: « ولا ريب أن علم الله محيط بظواهر الأمور وبواطنها وأن هذا الامتحان لم يأت بجديد بالنسبة إلى الكشف الإلهى المستوعب للبدايات والنهايات، غير أن الإنسان لا يحاسب على ما فى علم الله بل حسابه على عمله الشخصى » (السابق - ص ١٠٤).

● ويعرض شيخنا الدكتور محمد أحمد طه لقصص الأنبياء مع البلاء، كما حدث به القرآن الكريم، كما يظهر ذلك واضحًا جليًا فى بلاء أبى الأنبياء إبراهيم ورؤياه بذبح ابنه اسماعيل - عليه السلام - ونبى الله يوسف وابتلائه بحقد إخوته وتآمرهم عليه بالقتل بالرمى فى الجب ومراودة أمرأة العزيز وسجنه، وما نزل بنبى الله أيوب (عليه السلام) من صنوف البلاء التى تنوء بحملها الجبال، الأمر الذى أثنى معه الله تعالى عليه فى قوله : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص: ٤٤] ومروراً بنبى الله موسى، وصولاً إلى نبى الله يونس - عليه السلام - الذى ابتلاه الله تعالى بإلقائه فى بطن الحوت حيث صبر وفوض أمره إلى الله تعالى مثنيا عليه بتوحيده وتنزيهه وخضوعة التام له مع كمال

الضراعة والإقرار بالذنب، فيلطف الله تعالى به ويأمر الحوت بنبذه في العراء ويستره بشجرة اليقطين ويظله بأوراقها.

وأخيرا يأتي على ذكر خاتم الأنبياء، وإمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وجميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، الذي أمره الله بالصبر والثبات ويقص عليه نبأ الأنبياء والرسل مع أقوامهم ليُثبِّت فؤاده ويعينه على الاستمرار في دعوته واليقين بنصر الله تعالى إياه، كما في قوله جل وعلا: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٧]

– ويختم الشيخ الجليل تعقيبه هذا في بيان سنة الابتلاء بقوله: « وبهذا يتضح لنا جليًا أن الله يبتلي العباد على قدر إيمانهم، فمن كمل إيمانه كان بلاؤه أشد من غيره، ولذا كان نصيب الأنبياء من البلاء أكثر من غيرهم كما تقدم والله أعلم » (السابق ص ١٠٦).

وبعدُ: يبقى الرجاء في رفع البلاء بالدعاء الصادق، دعاء المضطر والمكروب ودعاء من يعرف حق ربه في الرخاء فيذكره مولاه عزّ وجل في الشدة.

* * *